أينشتاين ورواية في عظمة الخالق

مرة أخرى نثبت رأي العالم أينشتاين، عندما طلبه جماعة من اللاهوتيين والماديين إلى مكتبه في معهد الدراسات العليا في جامعة «برنستون» ليحكم بينهم في موضوع الله ﷻ بعد أن اختلفوا حوله، فقد سألوه: ما رأيك في الله؟

فأجاب قائلاً: «لو وفّقت أن أكتشف آلة تمكنني من التكلم مع الميكروبات، فتكلمت مع ميكروب صغير واقف على رأس شعرة من شعرات رأس إنسان، وسألته: أين تجد نفسك؟

قال لي: إني أرى نفسي على رأس شجرة شاهقة أصلها ثابت وفرعها في السماء.

عند ذلك أقول له: إن هذه الشجرة التي أنت على رأسها إنما هي شعرة من شعرات رأس الإنسان، وإن الرأس عضو من أعضاء هذا الإنسان.

لماذا تنظرون؟ هل لهذا الميكروب البكتري أو الفيروسي المتناهي في الصغر (حجمه جزء واحد من ألف مليون جزء من السنتيمتر مكعب، ووزنه جزء واحد من مليون مليون جزء من الغرام) أن يتصور جسامة الإنسان وكبره؟ كلا، إني بالنسبة إلى الله لأقل وأحط من ذلك الميكروب بمقدار لا يتناهى، فأنّى لي أن أحيط بالله الذي أحاط بكل شيء؟

ثم تابع أينشتاين كلامه:

«إن أعظم وأجمل شعور يصدر عن النفس البشرية، وهو ما كان نتيجة التطلع والتفكر والتأمل في الكون وأبعاده وخفائه وظلامه، إن الذي لا يتحرك شعوره وتتموج عاطفته نتيجة هذا التأمل لهو حي كميت. إن خفاء الكون وبعد أغواره وحالك ظلامه يخفي وراءه أشياء كثيرة منها الحكمة والجمال، لا تستطيع عقولنا القاصرة أن تدركها إلّا في صور بدائية أولية. وهذا إدراك للحكمة والإحساس بالجمال في روعة، هو جوهر العبادة عند بني البشر».

«إن ديني هو إعجابي بتلك الروح السامية التي تستطيع إدراكها، تلك التي تتراءى في التفاصيل الصغيرة القليلة التي تستطيع إدراكها عقولنا الضعيفة العاجزة وهو إيماني العاطفي العميق بوجود قدرة عاقلة مهيمنة تتراءى حيثما نظرنا في هذا الكون المعجز للأفهام[1].

إن هذا الإيمان يذكرني بقول أحمد شوقي إذ أجاد وأبدع:

تلك الطبيعةُ قِفْ بنا يا ساري
حتى أريك بديعَ صُنْع الباري
الأرض حولك والسماء اهتزّتا
لروائع الآيات والآثار
من كل ناطقة الجلال كأنها
أُمُّ الكتاب على لسان القاري

(1) العلوم الطبيعية في القرآن، يوسف مروة، ص: 234، منشورات مروة العلمية ط1، 1968، بيروت.

دَلّت على ملك الملوك فلم تَدَعْ
لأدلة الفقهاء والأحبار
مَنْ شك فيه فنظرة في صُنعهِ
تمحو أثيم الشك والإنكارِ[1]

□□

الحق بلا قوة باطل

يقول الشاعر محمد الأسمر في عدة أبيات له أن الحق يرجع باطلاً إن لم تساندها قوة قاهرة يقلع جذور الباطل ويستأصل شأفتها، فلا بد إذاً من تدعيم وتطعيم الحق بالقوة، حتى لا تقوم للباطل دولة. ويقول الإمام حسن البنا: «إن القوة أضمن طريق لإحقاق الحق وإبطال الباطل وما أجمل أن يسير الحق والقوة معاً».

نبينت أن الحق إن لم تتح له
بواسل يخشى ظلمها فهو باطل
ولا رأي إلّا ما رأى السيف مصلتاً
ولا قول مسموعاً لمن لا يناضل
فلا تحسبن الحق ينهض وحده
إذا ملت عنه فهو لا شك مائل

(1) الإسلام في شعر شوقي، د. أحمد الحوفي، ص: 35، وهو ينقلها من الشوقيات(2/ 36).

أقـمـه وأسـنـده وادعـم بـنـاءه وذد
عـنـه ذود الـلـبـث والـلـبـث صـائـل
ولا تـسـنـد الـحـق بـالـقـول وحـده
فـإن عـمـاد الـحـق مـا أنـت فـاعـل[1]

❑❑

من أسباب التحصن من مداخل الشيطان

إن الإسلام كما يساعد الإنسان على مواجهة التحديات الشيطانية، أرشده إلى أمور كثيرة الصمود، وقد أجملها أحد الصالحين بقوله: «نظرت وتفكرت من أي باب يأتي الشيطان إلى الإنسان، فإذا هو يأتي من عشرة أبواب:

1 ـ الحرص وسوء الظن، فقابلته بالثقة والقناعة.
2 ـ حب الحياة وطول الأمل، فقابلته بخوف ومفاجآت الموت.
3 ـ طلب الراحة وطلب النعمة، فقابلته بزوال النعمة وسوء الحساب.
4 ـ العجب، فقابلته بالمنة وخوف العاقبة.
5 ـ الاستخفاف بالناس وقلة احترامهم، فقابلته بمعرفة حقهم وحرمتهم.
6 ـ الحسد، فقابلته بالقناعة والرضى بقسمة الله تعالى في خلقه.

(1) الرسالة الإسلامية السنة (9) العدد (97) تشرين الأول 1976م.

7 ـ الرياء ومدح الناس، فقابلته بالإخلاص.
8 ـ البخل، فقابلته بفناء ما في أيدي الناس وبقاء ما عند الله تعالى.
9 ـ الكبر، فقابلته بالتواضع.
10ـ الطمع، فقابلته بالثقة بما عند الله، والزهد بما عند الناس. وصدق الله تعالى حيث يقول: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾[1].

□□

في مواجهة الحياة والموت

«يابن آدم، يوم ولدت كان كل الذين حولك سعداء... وكنت تبكي وحدك، اجعل حياتك حافلة بالأعمال الطيبة، حتى إذا ما جاءت ساعة رحيلك رأيت كل الذين حولك يبكون، وكنت أنت وحدك بلا دموع تذرفها. هكذا يواجه المرء الموت في هدوء في أي لحظة يجيء».

كانت هذه الكلمات بين الأوراق الخاصة التي عثروا عليها في بيت «داغ همرشولد» السكرتير العام للأمم المتحدة، بعد وفاته في الكونغو في حادث سقوط طائرة. اعتبر أخي المسلم بهذه الكلمات الخالدات، والتي ترفع الهمة في الإنسان وتدفعه بقوة إلى مدارج العلى، وذلك بفعل الأعمال الخيرة التي يسديها إلى الإنسانية المعذبة. فحاول أن تعكس

(1) سورة الأعراف، الآية: 201.

هذه المقولة على نفسك تكن أسعد الناس في الحياتين الدنيوية والأخروية. ولقد قام هذا الشاعر بترجمة بيتين رائعين:

قال الشاعر في التذكير بالمنشأ والمصير:

ولدتك أمك بابن آدم باكياً
والناس حولك يضحكون سرورا
فاعمل لنفسك أن تكون إذا بكوا
في يوم موتك ضاحكاً مسرورا

❑❑

الشيطان يقتل الهمة في الإنسان

يعجبني أن أستحضر دائماً كلمة كان ابن عربي الحاتمي يرددها كثيراً وهي: «إن الشيطان ـ عليه لعائن الله ـ تعالى، ليقنع من الإنسان بإخراجه من عمل حسن إلى عمل آخر حسن مثله».

أي أن الشيطان ليكتفي بالعمل على تحويل الإنسان من وجهته بإقناعه بضرورة الانصراف عن عمله الطيب، وهو لم يكمل إنجازه بعد، إلى عمل طيب مثله، لأنه بذلك يجعله دائماً في المراحل الأولى من أعماله دون أن يظفر بإنجاز كامل لواحد منها[1].

وهكذا يحاول الشيطان ـ عليه لعائن الله تعالى ـ أن يصرف

(1) النقد الذاتي، علال الفاسي، ص: 25.

الإنسان عن العمل الذي بدأه إلى عمل آخر... وهكذا والحيلولة دون إتمامه أو إتقانه؛ لأن في إتمامه وإتقانه فائدة عظمى للمسلمين، ورضى الله ورسوله عليه، فإن الله يحب من أحدكم إذا عمل عملاً أن يتقنه. أما الشيطان ومن والاه فإنه يكره ذلك ويحاول أن يقتل في الإنسان الهمة والروح الإبداعية التي حازها بأعمال الفكر واتباع الشريعة الغراء، فاحذر أن ينال منك الشيطان أو تصيبك شظاياه.

❑❑

سكينة النفس

قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ﴾[1].

يقول د. يوسف القرضاوي: منذ أعوام قرأت في مجلة (المختار) كلمة فاخرة لأحد الأطباء اللامعين في أمريكا قال فيها: وضعت مرة وأنا شاب جدولاً لطيبات الحياة المترفة، فكتبت هذا البيان بالرغائب الدنيوية: الصحة، والحب، والموهبة، والقوة، والثراء، والشهرة، ثم تقدمت بها إلى شيخ حكيم.

فقال صديقي الشيخ: جدول بديع، وهو موضوع على ترتيب لا بأس به، ولكن يبدو لي أنك أغفلت العنصر المهم الذي يعود جدولك بدونه عبثاً لا يطاق، وضرب بالقلم على الجدول كله، وكتب كلمتين(سكينة النفس) وقال: هذه هي

(1) سورة الفتح، الآية: 4.

الهبة التي يدّخرها الله لأصفيائه، وقد وجدت يومئذ أن من الصعب أن أتقبل هذا، ولكن بعد نصف قرن من التجربة الخاصة، أصبحت أدرك أن سكينة النفس هي الغاية المثلى للحياة الرشيدة، وأنا أعرف الآن أن جملة المزايا الأخرى ليس من الضروري أن تفيد المرء.

السكينة تزهو بغير عون من المال، بل بغير مدد من الصحة. وفي طاقة السكينة أن تحول الكوخ إلى قصر رحب، أما الحرمان منها فإنه يحيل قصر الملك قفصاً وسجناً.

وهذا ما دعى هذه المرأة بالقبول بالشيء القليل مقابل سكينة النفس وقنعت بما طيّب خاطرها ورفضت القصر المنيف:

لبيت تخفق الأرياح فيه
أحب إليّ من قصر منيف
ولبس عباءة وتقر عيني
أحب إليّ من لبس الشفوف
وأكل كسيرة في قعر بيتي
أحب إليّ من أكل الرغيف

□□

سبب المحبة

يقول ابن عجيبة في تفسيره الإشاري المسمى بحر المديد: واعلم أن سبب المحب «محبة الله» معرفته، فتَقوى المحبة على

قدر المعرفة، وتضعف على قدر ضعف المعرفة، فإن الموجب للمحبة أحد أمرين أو كلاهما إذا اجتمعتا ولا شك أنها اجتمعتا في حق الله تعالى غاية الكمال.

فالموجب الأول: الحسن والجمال، والآخر: الإحسان والإجمال. فأما الجمال فهو محبوب بالطبع، فإن الإنسان بالضرورة يحب ما يُستحسن، ولا جمال مثل جمال الله تعالى في حكمه البالغة وصنائعه البديعة، وأما الإحسان فقد جبلت القلوب على حب من أحسن إليها، وإحسان الله إلى عباده متوافر: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾[1].

□□

مقاييس العدالة في القدر

يقول الشيخ علي الطنطاوي: على أن أكثر علماء الكلام قد أخطؤوا حين طبقوا على الله مقاييس العدالة البشرية، نبهت إلى هذه الحقيقة بواقعة وقعت لي، أسردها؛ لأن فيها عبرة.

كنت سنة (1931م) أُدرِّس في مدرسة ابتدائية في الشام، وكنت في فورة الشباب وعنفوانه، في رأسي خواطر، وفي نفسي غرور، وعلى لساني بيان واندفاع، فعرضت لي شكوك في مسألة القدر، كنت أسأل عنها العلماء، فلا أجد عندهم الجواب الشافي لها، فيدفعني الغرور إلى جدالهم وإزعاجهم،

(1) سورة إبراهيم: الآية: 34.

حتى جاء يوم كنت فيه في المدرسة، وكنت أؤدِّب تلميذاً بالضرب (وكان الضرب من وسائل التأديب في تلك الأيام) ففجر الولد وتوقح وجعل يصرخ ويقول: «ظالم أنت». ثقوا أيها القراء أني لما سمعت ذلك سقطت العصا من يدي، ونسيت الولد والمدرسة، ورأيت كأني كنت في ظلمة فأضيء لي مصباح منير، فقلت لنفسي: أن التلميذ يرى ضربي إياه ظلماً، وأنا أراه عدلاً، والعمل واحد وإذا ذهب يشكو إلى أهله قالوا له: لا ما هذا ظلم، هذا عدل، إنه يضربك لمصلحتك...

فإذا كان التلميذ لا يحق له أن يطبق مقاييسه الناقصة على عدالة المعلم، فكيف أطبق أنا مقاييس البشرية للعدالة على الله تبارك وتعالى، ألا يمكن أن يكون الفعل الذي أراه ظلماً هو عين العدل؟

الولد المريض يرى الإبرة التي يدخلها الطبيب تحت جلده ظلماً، وهي في رأي أبيه عدل على عدل؛ لأن الولد نظر إلى ألمها، والأب أبصر أثرها في شفاء الولد[1].

مثال الدنيا والآخرة

أتعرفون ما مثال الدنيا والآخرة؟ إليكم هذا المشهد التصويري لهما. أعلنت أمريكا مرة عن تجربة ذرية تجريها

(1) تعريف عام بدين الإسلام، الجزء الأول في العقيدة، تأليف علي الطنطاوي، ص: 94، ط2، 1970م.

في جزيرة صغيرة من جزر البحر الهادي ، وكان ذلك قبل خمس عشرة سنة (أو نحوها) وكان في الجزيرة بضع مئات من السكان من صيادي الأسماك، فطلبت إليهم إخلاء مساكنهم، على أن تعوضهم عنها ببيوت مفروشة في أي بلد يريدون من البلدان، على أن يعلنوا استعدادهم لإخلائها وإحصائهم لما فيها قبل موعد كذا، (وحددت لهم موعداً) ثم تأتي الطيارات فتحملهم من الجزيرة. فمنهم من أعلن الاستعداد للإخلاء وقدم الإحصاء قبل الموعد. ومنهم من أهمل وأجّل حتى قرب الموعد. ومنهم من قال: هذا كله كذب. ما في الوجود مكان اسمه أميركا، وما الدنيا إلّا هذه الجزيرة، ولسنا نتركها ولا نرضى أن نفارقها، ونسي أن الجزيرة ستنسف كلها فتكون أثر بعد أن كانت عيناً .

هذا مثل الدنيا:

الأول: مثل المؤمن الذي يفكر في آخرته، ويستعد بالتوبة والطاعة دائماً للقاء ربه.

الثاني: مثل المؤمن المقصر العاصي.

الثالث: مثل المادي الكافر الذي يقول: إنما هي حياتنا الدنيا لا حياة بعدها. وإن الموت نوم طويل، وراحة دائمة وفناء محقق[1].

□□

(1) تعريف عام بدين الإسلام، علي الطنطاوي، ص: 17.

﴿وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾

تعقيب تقريري وتوجيهي، من تعقيبات القرآن على القصص، يكشف من جانب عن عظمة فضل الله ونعمته حتى ليقل القادرون على شكرها، ويكشف من جانب آخر عن تقصير البشر في شكر نعمة الله وفضله، وهم مهما بالغوا في الشكر قاصرون عن الوفاء. فكيف إذا قصروا وعقلوا عن الشكر من الأساس؟

وماذا يملك المخلوق الإنساني المحدود الطاقة من الشكر على آلاء الله وهي غير محدودة؟... ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾[1].

وهذه النعم تعمر الإنسان من فوقه ومن تحت قدميه، وعن أيمانه وعن شمائله، وتكمن فيه هو ذاته، وتفيض منه. وهو ذاته إحدى هذه الآلاء الضخام.

كنا نجلس جماعة نتحدث، ونتجاوب أفكارنا وتتجاذب وتنطلق ألسنتنا بكل ما يخطر على بال. ذلك حينما جاء قطّنا الصغير (سوسو) يدور هنا وهناك من حولنا يبحث عن شيء، وكأنما يريد أن يطلب منّا شيئاً، ولكنه لا يملك أن يقول، ولا نملك نحن أن ندرك، حتى ألهمنا الله أنه يطلب الماء. وكان هذا شدة العطش وهو لا يملك أن يقول، ولا أن يشير... وأدركنا في هذه اللحظة شيئاً من نعمة الله علينا بالنطق واللسان والإدراك والتدبير، وفاضت نفوسنا بالشكر لحظة، وأين الشكر

(1) سورة إبراهيم، الآية: 34.

من ذلك الفيض الجزيل.

وكنا فترة طويلة محرومين من رؤية الشمس وكان شعاع منها لا يتجاوز حجمه حجم القرش، ينفذ إلينا أحياناً. وإن أحدنا ليقف أمام هذا الشعاع يمرره على وجهه ويديه وصدره وظهره وبطنه وقدميه ما استطاع ثم يخلي مكانه لأخيه ينال من هذه النعمة ما نال!

ولست أنسى أول يوم بعد ذلك وجدنا فيه الشمس، لست أنسى الفرحة الغامرة، والنشوة الظاهرة على وجه أحدنا وفي جوارحه كلها وهو يقول في نغمة عميقة مديدة...: الله! هذه هي الشمس شمس ربنا وما تزال تطلع، الحمد لله!

فكم نبعثر في كل يوم من هذه الأشعة المحيية، ونحن نستحم في الضوء والدفء، ونسبح ونغرق في نعمة الله؟ وكم نشكر هذا الفيض الغامر المتاح المباح من غير ثمن ولا كد ولا معاناة؟[1]

□□

رحمة الله لا ممسك لها

قال تعالى: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾[2].

(1) في ظلال القرآن (22/6)، 637.

(2) سورة فاطر، الآيتان: 2، 3.

ورحمة الله لا تعز على طالب في أي مكان، ولا في أي حال.

وجدها إبراهيم عليه السلام في النار.

ووجدها يوسف عليه السلام في الجب، كما وجدها في السجنِ.

ووجدها يونس عليه السلام في بطن الحوت في ظلمات ثلاثٍ.

ووجدها موسى عليه السلام في اليم وهو طفل مجرد من كل قوة، كما وجدها في قصر فرعون وهو عدو له متربص به ويبحث عنه. ووجدها أصحاب الكهف في الكهف حين افتقدوها في القصور والدور فقال بعضهم لبعضهم: ﴿فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ﴾[1].

ووجدها رسول الله ﷺ وصاحبه في الغار والقوم يتعقبونهما ويقصون الآثار...

ووجدها كل من أوى إليها يأساً من كل ما سواها، منقطعاً عن كل شبهة في قوة، وعن كل مظنة في رحمة، قاصداً باب الله وحده دون الأبواب، ثم إنه متى فتح الله أبواب رحمته فلا ممسك لها، ومتى أمسكها فلا مرسل لها.

أية طمأنينة؟ وأي قرار؟ وأي وضوح في التصورات والمشاعر والقيم والموازين تقره هذه الآية في الضمير؟ ويبقى أن أتوجه أنا بالحمد لله على رحمة منه خاصة عرفتها منه في هذه الآية، لقد واجهتني هذه الآية في هذه اللحظة، وأنا في

(1) سورة الكهف، الآية: 16.

عسر وجهد وضيق ومشقة.

واجهتني في لحظة جفاف روحي، وشقاء نفسي، وضيق بضائقة وعسر من مشقة. . . واجهتني في ذات اللحظة. ويَسّر الله لي أن أطّلع منها على حقيقتها، وأن تسكب حقيقتها في روحي واقعاً لحقيقة الآية التي تفتحت لي تفتحها هذا. . . وقد قرأتها من قبل كثيراً ومررت بها من قبل كثيراً. ولكنها اللحظة تسكب رحيقها وتحقق معناها، وتنزل بحقيقتها المجردة، وتقول: ها أنا ذا. . . نموذجاً من رحمة الله حين يفتحها، فانظر كيف تكون.

إنه لم يتغير شيء مما حولي ، ولكن لقد تغير كل شيء في حسي، إنها نعمة ضخمة أن يتفتح القلب لحقيقة كبرى من حقائق هذا الوجود، كالحقيقة الكبرى التي تتضمنها هذه الآية، نعمة يتذوقها الإنسان ويعيشها ولكنه قلما يقدر على تصويرها، ونقلها للآخرين عن طريق الكتابة وقد عشتها وتذوقتها وعرفتها، وتمّ هذا كله في أشد لحظات الضيق والجفاف التي مرت بي في حياتي.

وها أنا ذا أجد الفرج والفرح والندى والاسترواح والانطلاق من كل قيد ومن كل كرب ومن كل ضيق، وأنا في مكاني.

إنها رحمة الله يفتح الله بابها ويسكب فيضها في آية من آياته، آية من القرآن تفتح كوة من النور، وتفجر ينبوعاً من الرحمة، وتشق طريقاً ممهداً إلى الرضا والثقة والطمأنينة

والراحة في ومضة عين وفي نبضة قلب وفي خفقة جنان.

اللّهم حمداً لك، اللهم منزل هذا القرآن هدى ورحمة للمؤمنين[1].

□□

حلاوة الإيمان وحقيقته ومراتبه

والإيمان باتفاق هو: التصديق الكامل، والإذعان النفسي، والتسليم القلبي لكل ما جاء به الرسول عليه الصلاة والسلام.

ولكن هذا التعريف يحتاج إلى تفصيل:

فالإيمان في حقيقة الأمر، هو حالة نفسية وعقلية معاً، يصبح معها الإنسان أشبه بالإناء الذي امتلأ إلى حافته، أو حالة الغليان للسوائل، أو حالة الاشتعال للأجسام. فليس الإيمان هو التصديق الكامل ولا الاعتقاد الذي لا تشوبه شائبة تضعفه والذي لا يلابسه شرط، واقترن بأجل. فهذا التعريف ينطبق على المرحلة السابقة على الإيمان والمؤدية إليه وهي مرحلة الإقناع العقلي. ولكن للإيمان عناصر أخرى غير الاقتناع العقلي.

إذ لا بد أن ينضم إليه: انفعال الوجدان، وامتلاء النفس حتى تصبح جميع قوى الإنسان العقلية والعاطفية الواعية وغير الواعية متجهة اتجاهاً واحداً نحو موضوع الإيمان. لا تملك الانصراف عنه أو الانشغال بشيء معه فهي أقرب ما تكون إلى

(1) في ظلال القرآن (6/ 22، 671).

حالة هيام العشاق. أو هي على حد قول قائل: «إن الإيمان هو جنون العقلاء وعندما يصل الإنسان إلى هذه الدرجة تتضاعف قواه عشرة أضعاف». وقد نص القرآن على ذلك إذ قال الله تعالى في سورة الأنفال: ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِاْئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾،[1] فسرُّ غلبة المؤمنين إيمانهم.

وتضاعف قوة الإنسان بعد إيمانه يمكن تفسيره مادياً وعملياً.

ففي جسم الإنسان غدة يكثر إفرازها في حالات الخطر والغضب، ومن شأن هذه المادة أن تزيد عضلات الجسم صلابة وتقوي احتماله، وتقلل شعوره بالألم، وتكسو وجهه بسمات تخيف العدو، في حين تصم أذنيه هو عن سماع تحذير الأصدقاء.

ومثل هذا التغير يحدث في الحيوان الصغير والكبير على السواء.

فالهرة التي تحس بالخطر يحدق بها، تتحول إلى نمر مفترس، والدجاجة التي ترى الثعبان يقترب من فراخها تصبح نسراً كاسراً، ولا تزال تهاجم عدوها وتدميه، على الرغم من قوته وضعفها، حتى تقتله إن لم يفر نجاةً بنفسه.

هذه القوة غير العادية التي يمنحها للكائن الحي،

(1) سورة الأنفال، الآية: 65.

والغضب أو التصدي لحالة الخطر، هي القوى التي يمنحها الإيمان للمؤمنين.

إلا أن الإيمان يمنح المؤمنين قوة من طبيعة أخرى. هي القوة التي يبعثها الحب المشتعل للمحبين فيزيد من اتقاد وجدانهم، ومن لطف إحساسهم، ومن فنائهم فيمن يحبونه. فيصبح كل ما يأتي بسببه جميلاً ومحبوباً، ولو كان عند غيرهم مؤلماً قاسياً، فالتضحية من أجل إسعاده سعادة لهم وتحقيقاً لوجودهم. ويبلغ بهم الاستهتار في الحب والانقطاع له والفرح به بحيث لا يطيقون أن يسمعوا في ذلك لوماً: ﴿يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾[1].

وفي القرآن أمثلة للمؤمنين الذين لا يخيفهم الفزع ولا يفت في عضدهم التهديد بالموت، ومن هذه الأمثلة إيمان سحرة فرعون ـ عليه لعنة الله ـ ﴿قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾ قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا﴾[2].

فالإيمان في واقع الأمر ـ كما كررنا ـ هو دعوة مستمرة ومتصلة لمواجهة الأخطار والصمود لها: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِىٍّ قَٰتَلَ

(1) سورة المائدة، الآية: 54.

(2) سورة طه، الآيات: 71، 72، 73.

مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَآ أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا﴾[1].

ففي آية واحدة تتابعت ألفاظ الوهن والضعف، والاستكانة لينفيها الله عن المؤمنين، ثم تمضي حياة المؤمنين امتحاناً مستمراً وكأنهم الجنود في الجيش. ولا ينقطع تدريبهم حتى في وقت السلم، وبغير هذا الامتحان لا يمكن أن يخلد المؤمن إلى الراحة. ويستدرجه لين العيش فيحسب أن الخطر على عقيدته قد زال، وأن في وسعه أن يلقي السلاح وعلى هذه الامتحانات المستمرة، يقول الله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾[2].

إذاً فإن الإيمان هو كبرى المنن التي ينعم بها الله على عبد من عباده في الأرض، إنه أكبر من منة الوجود الذي يمنحه الله ابتداء لهذا العبد، وسائر ما يتعلق بالوجود من آلاء الرزق والصحة والحياة والمتاع.

وأول ما يصنعه الإيمان في الكائن البشري، حين تستقر حقيقته في قلبه، هو سعة تصوره لهذا الوجود، ولارتباطاته هو به، ولدوره هو فيه.

□□

(1) سورة آل عمران، الآية: 146.
(2) سورة البقرة، الآية: 214.

لن يكسر الباطل حقي

من منا لم يسمع بملاحم المجاهد الكبير عمر المختار رحمه الله ووقع حُسامه في نفوس الأعداء؟ لقد قاد الطلائع الإسلامية في الصحراء الليبية في حرب غير متكافئة مع الإيطاليين الذين كانوا يحتلون أجزاء من الوطن الغالي، وعاثوا في البلاد وقتلوا الصبية والشيوخ بالأسلحة المدمرة، فكان لا بد من قيام ثورة عارمة ضد هذا التواجد غير المشروع، وكان مأجج هذه الثورة ولولبها وقائدها المجاهد عمر المختار الذي وقف كالطود الشامخ ونذر حياته في سبيل إنقاذ الوطن من براثن الأعداء، ولم يزل يقاتلهم حتى وقع في الأسر عام 1931م. والآن لنسمع كيف يخاطب الأعداء ولا يرهبهم وإنما يرهبون منه وهو مطوق بالأغلال الحديدية، لكن الإيمان كان يملأ فؤاده ولم يشعر بآذاهم؛ لأنه كان مؤمناً صادقاً، فمن شيمة المؤمنين أن لا يرضخوا للكفرة مهما تطاول الكفر فالإيمان أعلى وأبقى.

«إن القبض عليّ، ووقوعي في قبضة الطليان، إنما حدث تنفيذاً لإرادة المولى ﷻ وإنه وقد أصبحت الآن أسيراً بأيدي الحكومة، فالله ﷻ وحده يتولى أمري.

وأما أنتم فلكم الآن، وقد أخذتموني أن تفعلوا بي ما تشاؤون، وليكن معلوماً أني ما كنت في يوم من الأيام لأسلم لكم طوعاً». ويتابع ويقول: «لئن كسر المدفع سيفي لن يكسر الباطل حقي». وهو على خشبة المشنقة كان يسخر من الأعداء ويبتسم وقال له بعضهم: اطلب العفو، ونحن نطلق سراحك.

فأجابهم بكل إباء وشمم: «لو أطلقتم سراحي، لعدت لمحاربتكم من جديد». لله در هذه الروح الإيمانية العالية، التي لم تعرف الخور ولا الجبن، وأنّى للخور والجبن أن يدخلا في ذلك القلب الطاهر الذي يشهد الله في كل حال ومآل؟ ثم حوكم على طريقة الكافر المستعمر ، ونصبت المشنقة قبل المحاكمة ، وأمام الجموع الغفيرة التي أجبرت على الحضور، نفذ حكم الإعدام ولسانه وقلبه وحاله يردد: أشهد أن لا إله إلّا الله وأشهد أن محمداً رسول الله، وكان ذلك من صباح يوم الأربعاء(11) سبتمبر 1931م في مدينة سلوق وله من العمر (69) عاماً[1].

□□

محنة سعيد بن جبير

كان سعيد بن جبير ﷺ من الذين يناوئون حكم عبد الملك بن مروان، وكان الحجاج بن يوسف فاسق بني ثقيف، والياً لعبد الملك، يأخذ بالشبهات، ويتحرى المناوئين في جميع البلاد الإسلامية، لحكم أميره، فيصب المحن عليهم دون هوادة، وكان خالد بن عبد الله القسري، والياً على مكة المكرمة ـ زادها الله مثابة وأمناً ـ وقد علم بوجود ابن جبير في ولايته، فألقى القبض عليه، ثم أراد أن يتخلص منه لمعرفته بأن سعيداً قد أوتي لساناً ناطقاً، وقلباً حافظاً، وسرعة بديهة، وبإلقاء الحجة القوية لإسكات خصمه ودفعاً للوقوع في لجة

(1) عمر المختار، محمود شلبي، ص: 46.

المخاصمة، وخضم المنافسة التي لا تضمن نصره، وخوفاً من مس شعور أهل مكة الذين يدينون بالولاء والاحترام لابن جبير، أرسله مخفوراً مع إسماعيل بن واسط البجلي إلى الحجاج بن يوسف.

وهنا تبدأ المحنة، ثم تشتد سورتها مع لقاء الحجاج، وفي هذا اللقاء غير الكريم، جرت المناقشة، والمخاصمة الفكرية، وكان سعيد فيها فارس الميدان، وصاحب لواء النصر حيث كان فيها جريئاً، لا تلين قناته، صلب لا يضعف سيف لسانه:

قال الحجاج: ما اسمك؟

قال سعيد: سعيد بن جبير.

الحجاج: بل أنت شقي بن كسير!

سعيد: بل كانت أمي أعلم باسمي منك.

الحجاج: شقيت أمك وشقيت أنت.

سعيد: الغيب يعلمه غيرك.

الحجاج: لأبدلنّك بالدنيا ناراً تلظى.

سعيد: لو علمت أن ذلك بيدك لاتخذتك إلٰهاً.

الحجاج: فما قولك في محمد؟

سعيد: نبي الرحمة، وإمام الهدى.

الحجاج: فما قولك في علي أهو في الجنة أم هو في النار؟

سعيد: لو دخلتها، وعرفت من فيها، عرفت أهلها.

الحجاج: فما قولك في الخلفاء؟

سعيد: لست عليهم بوكيل.

الحجاج: فأيهم أعجب إليك؟

سعيد: أرضاهم لخالقي.

الحجاج: فأيهم أرضى لخالقك؟

سعيد: علم ذلك عند الذي يعلم سرهم ونجواهم.

الحجاج: أحبُّ أن تصدقني.

سعيد: وإن لم أحبك لن أكذبك.

الحجاج: فما بالك لم تضحك؟

سعيد: وكيف يضحك مخلوق خلق من طين، والطين تأكله النار؟

الحجاج: فما بالنا نضحك ؟

سعيد: لم تستوِ القلوب.

ذلك هو المشهد الأول من المحاكمة، وقد بدا فيها الحجاج أنه قادر على إخضاع سعيد إليه، أو حمله على إعطاء الولاء لأميره وسيده.

وهنا يسلك الحجاج طريقاً آخر، لعله يصل فيه إلى ما يريد، ثم أمر الحجاج باللؤلؤ والزبرجد، والياقوت، فجمعه بين يديه.

فقال سعيد: إن كنت جمعت هذا لتَّقي به فزع يوم القيامة

فصالح، وإلّا ففزعة واحدة تذهل كل مرضعة عما أرضعت، ولا خير في شيء للدنيا إلّا ما طاب وزكا. وينتهي المشهد الثاني من هذه المحنة، فلم ينفع الحجاج هذا الإغراء بالمال، ثم يسلك سبيلاً آخر.

ثم دعا الحجاج بالعود والناي، فلما ضرب بالعود، ونفخ في الناي ، بكى سعيد .

فقال الحجاج: ما يبكيك؟ أهو اللعب؟

قال سعيد: هو الحزن، أما النفخ فذكّرني يوماً عظيماً يوم ينفخ في الصور، وأما العود فشجرة قطعت من غير حق، وأما الأوتار فمن الشاة تبعث يوم القيامة.

فسعيد، ليس من هواة الطرب، ولا من رواد الناي والعود.

إنما هو من هواة الحق.

لقد فشلت جميع تلك السُبل، هنا اشتدت المحنة بمشاهدها، أو تصل إلى نهايتها.

قال الحجاج: ويلك يا سعيد.

فقال سعيد: لا ويل لمن زحزح عن النار، وأدخل الجنة.

قال الحجاج: اختر يا سعيد أي قتلة أقتلك؟

فقال سعيد: اختر أنت لنفسك، فوالله لا تقتلني قتلة إلّا قتلك الله مثلها في الآخرة.

فقال الحجاج: أتريد أن أعفو عنك؟

قال سعيد: أما كلمة العفو فمن الله، وأما أنت فلا براءة لك ولا عذر.

عند ذاك ضاق الحجاج ذرعاً بسعيد. فأمر بإنهاء المحنة.

قال الحجاج: اذهبوا به فاقتلوه، فلما خرج ضحك، فأخبر الحجاج بذلك فردوه إليه.

وقال الحجاج: ما أضحكك؟

فقال سعيد: عجبت من جرأتك على الله وحلم الله عليك، فأمر بالنطع فبسط.

وقال: اقتلوه.

فقال سعيد: ﴿وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[1].

قال الحجاج: وجهوا به لغير القبلة.

قال سعيد: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾[2].

قال الحجاج: كبوه على وجهه.

قال سعيد: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾[3].

قال الحجاج: اذبحوه، قال سعيد: أما أنا فأشهد أن لا إله إلّا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، خذها مني حتى تلقاني بها يوم القيامة. اللّهم لا تسلطه على

(1) سورة الأنعام، الآية: 79.
(2) سورة البقرة، الآية: 115.
(3) سورة طه، الآية: 55.

أحدٍ بقتلة بعدي.

فذبح من الوريد إلى الوريد ولسانه رطب بذكر الله. وبهذا انتهت محنة العالم سعيد بن جبير باستشهاده.

قيل: عاش الحجاج بعده خمس عشرة ليلة، ووقعت الأكلة في بطنه، فدعا بالطبيب لينظر إليه، فدعا باللحم المنتن فعلقه بالخيط، وأرسله في حلقه وتركها ساعة، ثم استخرجها وقد لزق من الدم، فعلم أنه ليس بناج، وكان ينادي بقية حياته: ما لي ولسعيد بن جبير؟ كلما أردت النوم أخذ برجلي...

ودفن سعيد بظاهر وسط بالعراق.

قيل للحسن البصري رحمه الله تعالى: إن الحجاج قد قتل سعيد بن جبير.

فقال: اللّهم ائتِ على فاسق ثقيف، والله لو أن من بين المشرق والمغرب اشتركوا في قتله لكبهم الله ﷻ في النار.

وقال الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى: قتل الحجاج سعيد بن جبير وما على وجه الأرض أحد إلّا وهو مفتقر إلى علمه.

إن كلمة مؤمنة يعلنها العالم المسلم أمام كل وسائل الإرهاب والتعذيب، حين يقترح عليه وسطاء جلاديه، أن يعتذر أو يرجو أو يسترحم ليفوز بالعيش ويكسب الحياة ويخلص عنقه من حبل المشنقة... لأروع دليل على هزيمة كل خصوم الإسلام مهما اختلفت أصنافهم وتعددت ألوانهم ومشاربهم.

إن هذه المحنة ستظل تصفع كل أدعياء الهزيمة في نفوسهم وأمتهم وديارهم المنكوبة.

ولم تقف المحن والاضطهاد في حياة الدعاة إلى الله ولن تنتهي إلى أن يرث الله الأرض من عباده الصالحين.

ولأن طريق الدعوة شاقة ووعرة، ولو كانت سهلة ميسورة لسهل على كل إنسان أن يكون صاحب دعوة، ولاختلط الحق ودعاوى الباطل، ووقعت البلبلة والفتنة، ولكن بروز الخصوم والأعداء لأصحاب الدعوات ولدعواتهم، هو الذي يجعل الكفاح لانتصارها حتماً مقضياً ولا يحتمل الآلام ولا التضحيات إلّا أصحاب دعوة الحق الجادون المؤمنون الذين يؤثرون دعوتهم على الراحة والمتاع، وأعراض الحياة الدنيا، بل على الحياة نفسها حين تقتضيهم دعوتهم أن يستشهدوا في سبيلها، ولا يثبت على الكفاح المرير إلا أصلبهم عوداً أو أشدهم إيماناً[1]، وأكثرهم تطلعاً إلى ما عند الله واستهانة بما عند الناس. يقول أحد الدعاة قبل إعدامه ولقد حصل على شرف ثواب المحنة ومن ثم الاستشهاد في سبيل الله، وقد وسط له الجلادون من يشير عليه بأن يسترحمهم للإفراج عنه قال: «إذا كنت سجيناً بحق فأنا أرضى حكم الحق، وإذا كنت سجيناً بباطل فأنا أكبر من أسترحم الباطل».

﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾[2].

❑❑

(1) اعتمدنا في كتابة هذه المحنة من وفيات الأعيان لابن خلكان الأربلي (2/ 112).

(2) سورة الرعد، الآية: 24.

في مجلس الخليفة

إن هشام بن عبد الملك قدم إلى مكة فلما دخلها، قال: ائتوني برجل من الصحابة، فقيل: تفانوا، فقال: من التابعين، فأتي بطاووس اليماني العالم الجليل رحمه الله. فلما دخل عليه، خلع نعليه بحاشية بساطه، ولم يسلم عليه بإمرة المؤمنين ولكن قال: السلام عليك ياهشام ولم يكنّهُ، وجلس بإزائه وقال: كيف أنت يا هشام؟ فغضب هشام غضباً شديداً حتى همّ بقتله، فقال له: أنت في حرم الله وحرم رسول الله عليه الصلاة والسلام، ولا يمكن ذلك...

فقال: يا طاووس ما الذي حملك على ما صنعت؟

قال: وما الذى صنعت؟

فازداد غضباً وغيظاً.

قال هشام: خلعت نعليك بحاشية بساطي، ولم تقبل يدي، ولم تسلم بإمرة المؤمنين، ولم تكنّني؟ فقال: أما ما فعلت من خلع نعلي فإني أخلعها بين يدى ربّ العزة كل يوم خمس مرات ولا يعاقبني، وأما قولك لم تقبل يدي: فإني سمعت أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه يقول: لا يحل لرجل أن يقبّل يد أحد إلّا امرأته من شهوة، وولده من رحمة.

وأما قولك: لم تسلم بإمرة المؤمنين، فليس كل الناس راضين بإمرتك، فكرهت أن أكذب.

وأما قولك: لم تكنّني فإن الله سمّى أنبياءه فقال: يا داود، يا يحيى ، يا عيسى، وكنّى أعداءه فقال: تبت يدا أبي لهب.

وأما قولك: جلست بإزائي: فإني سمعت أمير المؤمنين علياً ﷺ يقول: إذا أردت أن تنظر إلى رجل من أهل النار، فانظر إلى رجل وحوله قوم قيام .

نستفيد من هذه الحادثة والمحادثة الحادة أموراً مهمة يجب أن يتحلى بها الداعي إلى الله ومن أهم هذه الأمور هو أن يكون الداعي على قدر واسع من الثقافة الإسلامية وأن يتصف بسرعة البديهة في حل المعضلات بسرعة فائقة، وأن لا يهادن ولا يداهن، وأن يقول قول الحق وأن لا يخاف في الله لومة لائم. وأن يحتج دائماً بأقواله وأفعاله بالأدلة المعتبرة النقلية والعقلية حتى يسلم المقابل لدعوى الداعي وأن يفحم المجادل، كما فعل طاووس مع هشام فليتأمل.

❑❑

لماذا نخاف الموت

مرّ سليمان بن عبد الملك بالمدينة، وهو متجه إلى مكة المكرمة، وسأل عمن بقي فيها من العلماء الذين أدركوا أصحاب رسول الله، قيل له: إن عالم المدينة الآن هو أبو حازم الأعرج سلحة بن دينار فسعى إليه ودار بينهما الحوار التالي:

قال سليمان : يا أبا حازم ما لنا نكره الموت؟

قال: لأنكم خربتم آخرتكم وعمرتم الدنيا فكرهتم أن تنتقلوا من العمران إلى الخراب . قال: أصبت، فكيف القدوم غداً على الله؟

قال: أما المحسن فكالغائب يقدم على أهله، وأما المسيء فكالآبق يقدم على مولاه.

فأخذ البكاء بحلق سليمان.

فقال له أبو حازم: يا أمير المؤمنين، اعرض عملك على كتاب الله، ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ﴾[1].

قال له سليمان: فأين رحمة الله يا أبا حازم؟ قال: رحمة الله قريب من المحسنين.

ثم سأله: أي القول أعدل؟

فقال: قول الحق عند من تخافه أو ترجوه.

قال: أي المؤمنين أكيس؟

قال: رجل عمل بطاعة الله، ودل الناس عليها.

قال: فأي المؤمنين أحمق؟

قال: رجل انحط في هوى أخيه وهو ظالم فباع آخرته بدنيا غيره.

قال سليمان: فادع لنا.

فرفع أبو حازم يده قائلاً: اللّهم إن كان سليمان وليك فيسره إلى ما تحب وترضى. ثم قال لسليمان: قد أوجزت

(1) سورة الانفطار، الآيتان: 13، 14.

وأكثرت إن كنت من أهله، وإن لم تكن من أهله فما ينبغي أن أرمي عن قوس ليس لها وتر.

فقال له سليمان: ـ وقد قام ليذهب ـ أوصني يا أبا حازم.

فقال: سأوصيك وأوجز: عظّم ربك ونزّههُ أن يراك حيث نهاك أو يفقدك حيث أمرك. فلما خرج من عنده سليمان بن عبد الملك، أقبل إليه بعض من كان في مجلسه قائلاً: يا أبا حازم هل كان من الحكمة أن ترد على الخليفة بهذا الأسلوب الخشن؟

فقال له: لعلك يا هذا إنما تحب الحكمة في الدعوة، أن يسلك إليها الداعي سبيلاً يضمن بها سلامة حياته ودنياه، ويتقي بها ما قد يحذره من فتن الدنيا ومصائبها، فاعلم أن هذا المعنى إنما ينفثه الشيطان في روع أوليائه، وبه كان يستعصم المنافقون عن تلبية أمر رسول الله ﷺ لهم بالخروج إلى الجهاد وتحمل بعض وجوه المشاق. إذ كانوا يريدون من الصراط الذي أمرهم بالتزامه، أن يوفر لهم رخاءهم ومعاشهم الدنيوي وأن لا يحملهم أي عنت أو جهد، فلذلك قالوا لبعضهم: لا تنفروا في الحر وجاء أحدهم يعتذر عن الخروج مع المسلمين للجهاد قائلاً: ائذن لي ولا تفتنّي... وجاء آخرون يقولون له عليه الصلاة والسلام: إن بيوتنا عورة.

وإنما الحكمة في الدعوة أن يسلك إليها أقرب السبل إلى أفئدة الناس وعقولهم، وليست الحكمة أن تسلك بالدعوة أقرب السبل إلى ضمان أمنك ودنياك، وليست الحكمة حصناً يقي به الداعي نفسه مما قد يلحقه من البأساء والضراء، وإنما

هي سياسة يحافظ بها على كلمة الحق كي تصل إلى مداها من عقول الناس ونفوسهم واضحة سليمة مشرقة.

فانظر أنت ، ماذا عسى أن تكون الوسيلة إلى المحافظة على كلمة الحق تصل إلى مداها بهذا الشكل؟ فإنما هي الحكمة بعينها ولا عليها.

ولو ذهبت تُفسّر الحكمة على الوجه الذي توهمت، لبطل أن يستقيم أي معنى لمثل قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾[2].

فهذه الآيات ـ ومثلها في القرآن الكريم كثير ـ دعوة صريحة واضحة للمسلمين أن يجعلوا دنياهم مطية للآخرة، فقال السائل: أفلا يكون إبقاء المؤمن على نفسه عن طريق اتخاذ سبيل المجاملة والمداراة إبقاءً على الدعوة نفسها في كثير من الأحيان؟ لا سيما إن كان هذا الرجل صدراً بين قومه في العلم والصلاح، فتوسمه الشيخ قائلاً: لعلك إنما تريد بكلامك هذا ما قد أجبت به أمير المؤمنين آنفاً، مما لم يرضِ بعض شيعته وأعوانه، ولعلك إنما خشيت على شيخك من غوائل تلك الكلمة التي أجبته بها فخشيت أن لا يبعث الله لعباده من بعده من يقوم مقامه في الوعظ والنصيحة للمسلمين.

(1) سورة آل عمران، الآية: 142.
(2) سورة التوبة، الآية: 111.

فاعلم يا بني: أن الله قال لرسوله ﷺ: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾[1] وقال له: أن عليك البلاغ.

ويا عجباً: كيف لا تجزع يا هذا لحال شيخك غداً يوم القيامة إن هو تلجلج اليوم في النطق بكلمة الحق خوفاً على حياة فانية مع أن الذي ينفعه كلمة الحق؟[2].

❑❑

متهم يقيم الدليل على تهمته

ومن بلاد الهند نقف هنيهة من الزمن ولا نغادرها لأننا صادفنا ونحن نجول ونتصفح سجلها المشرق والزاخر بنماذج حية من بطولات وتضحيات رجال الدعوة والفكر الإسلامي وصراعهم الفذ مع الاستعمار الإنجليزي، كان لا بد أن نتعرف على أمثال هؤلاء الرجال وما عانوه وتحملوه بسبب مبادئهم السامية وعقيدتهم الناصعة ، ورفضهم لكل إغراءات الاستعمار. ولما لم يفد معهم وسائلهم المغرية حاولوا أكثر من طاقاتهم التنكيل بهم وزجهم في دياجير الظلام لعلها ترضخهم لمطالبهم الخبيثة، ويمسكون بهم ليكونوا أبواقاً للفكر الدخيل والعقيدة الزائغة، فهم مهما حاولوا معهم لن يجدوا منهم آذاناً صاغية، ولن يلين عودهم أمام ضرباتهم، بل تقوى

(1) سورة البقرة، الآية: 272.

(2) من الفكر إلى القلب، محمد سعيد البوطي، ص: 133، ط2، 1974، بيروت.

وتصلب أكثر من قبل، فلن يزحزحهم عن الطريق الذي يسيرون عليها ويهتدون بهديها، وصدق الله: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾[1]، ولنصغ إلى أحدهم وهو العلامة مولانا أبو الكلام أزاد ويلقب بصاحب الإمامتين: إمامة الدين إمامة السياسة.

يقف مولانا في القمة في الدعوة للتحرر عن طريق الإسلام حين قبض عليه الإنكليز عام 1921م بتهمة الدعوة إلى مقاطعة الإنكليز، وقدمته للمحاكمة وتولى أمر الدفاع عن نفسه في مرافعة طويلة، وكانت فرصة انتهزها لا ليقنع المحكمة ببراءه، فقد قدم الدليل على إدانته حسب قوانين المحكمة، بل ليتخذ من هذه المرافعة التي كان يتتبعها الجمهور، وسيلة للدعوة من داخل المحكمة إلى الثورة على المستعمرين، وهذه المرافعة تعتبر بحق أثمن وثيقة تكشف عن موقف الإسلام من الاستبداد والاستعمار.

يقول عنه شبلي النعماني أحد زعماء الفكر في الهند: إن عقل أزاد وذهنه أعجوبة من أعاجيب الزمن، ولا بد أن تعرض هذه الأعجوبة في معرض من المعارض العلمية، وقبل أن نعرض أحاديثه القيمة في المحكمة نحاول أن نستحضر بعض مقولاته التي كانت لها تأثيراً كبيراً على المسلمين وتبصيرهم بحقيقة الاستعمار: «لقد أعلنت للمسلمين من اثنتي عشرة سنة أن الجهاد في سبيل الحرية، وبيع الرؤوس في سبيل إعلاء

(1) سورة الحجر، الآية: 42.

كلمة الحق، هو إرثهم الإسلامي»، لا شك أن الحركة العاتية التي يقوم بها الشعب للتخلص من الاستعمار والاستعباد يكون وراءها عدة عوامل... ولكن مما لا شك فيه أيضاً أن هناك من بين هذه العوامل عاملاً مهماً في هذا التحرك.

فالقطار حينما يتحرك تكون هناك عدة عوامل تساعده على التحرك، لكن العامل الأول الذي جعل كل هذه العوامل تؤدي وظيفتها إنما هو الوقود وهو طاقة النار أو الكهرباء التي امتدت يد القائد إليها ليطلقها، وليطلق بعد ذلك المارد الجامد، أو الجسم الهامد، ومن أخص الخصائص للقائد الناجح الماهر، أن يهتدي إلى (الزر) أو المفتاح الذي يطلق به هذه الطاقة، وهنا نجد مولانا أزاد أحد القلة الذي اهتدى إلى (الزر) الذي يحرك هذا الشعب، ويطلق طاقاته ويجعله ينتفض ليطالب بحقه، غير مبال بالقوة الإنكليزية الرهيبة التي أمامه[1].

والآن نأتي لنفتح ستار المحكمة ليظهر فيها هذا العملاق وهو يوجه رسالته إلى العالم ويبين معالم رسالته ومبادئه القيمة وهو مكبل بالحديد وحراسة مشددة حول قضبانه الذي أطلق من هناك دعوة الإسلام وهديه ليسمعه منه العالم الغربي.. كان ذلك في أواخر سنة 1922م.

استقبل (أزاد) المحكمة ثابت الجأش ساكن النفس كأنما يسعى إلى موعد حبيب إليه مألوف عنده، وساد المحكمة سكون رهيب قطعه (أزاد) بقوله: «أيها القضاة، إني كنت

(1) مجلة العربي الكويتية العدد(175)، 1973، مقال الشيخ عبد المنعم النمر.

عازماً عليّ أن أقدم إلى المحكمة بياناً ما لأنها مكان لا رجاء لنا فيه ولا طلب منه، ولا شكوى إليه، وإنما هي كمنعرج الطريق إلى المنزل لا بد من قطعه للسابل، ولذا نقف فيه وقفةً على كره منا، وإلا لدخلت السجن تواً».

ثم يقول: «إني إذ أتدبر التاريخ العظيم لهذا الموقف وأراني قد شرفت بالوقوف فيه تسبح روحي بحمد الله ويلهج لساني بشكره من غير قصد مني، وهو وحده يعلم ما أجده من الفرح والابتهاج إذ أحسبني في هذا القفص محسوداً للملوك والسلاطين العظام... فأين لهم في قصورهم المريحة، تلك المسرة والراحة التي ترقص في صدري؟ إني أقول حقاً لو أدركها الناس لتمنوا المثول في هذا المكان، ولنذروا النذور لأجله».

وهو هنا يذكرنا بما أجاد به أحد العارفين بالله ببيت رقيق وذائع الصيت ترجم بها حالته النفسية وما كان يحس بها من لذة يُحسد بها عليها لأن ما يشعر به لا يمكن للملوك ولا للأباطرة أن يحسوا به أو أن يقتبسوا منه.

لو علم الملوك ما نحن فيه من لذة

لجالدونا عليها بالسيوف

ثم يقول: «إني كنت عازماً على السكوت في المحكمة، ولكن لما أحضرت إليها ورأيت الحكومة تقدم في إثبات جريمتي الخطبتين اللتين ألقيتا في مجاميع (كلكتا) وهما لا تحتويان على جميع الأمور التي ما زلت أكررها في جميع

خطبي ورسائلي ومقالاتي، والتي إن قدمت كانت أنفع لقصدها.

علمت أنها عاجزة حتى عن تهيئة المستند الذي يعتبر في هذه الأيام كافياً لإنزال العقاب بيَّ، مع شدة رغبتها وحرصها على سجني، فغيرت قصدي وقلت: إن العلة التي كانت مانعة من الكلام أصبحت موجبة له.

وأردت أن أثبت بلساني الأمر الذي لا تستطيع الحكومة إثباته... أرأيتم متهماً يقيم الدليل على تهمته ويمهد للقاضي سبيل الحكم عليه؟ ولكن هكذا تكون مواقف الرجال في ملاقاة الأهوال والمحن»، ثم يمضي (أزاد) يؤكد للمحكمة في صراحة ثبوت التهمة الموجهة إليه: «إن كانت هذه التصريحات جناية فإني معترف بأن قلبي قد اشتغل بها ولساني نطق بها، وأنا الذي صرحت بها أمام عشرات الألوف من الناس... بل إني لأجدني الآن مدفوعاً إلى التصريح بها أمام المحكمة، ولا أزال قائلاً بها ما دام لساني بين أسناني وروحي في جثماني، وإن لم أفعل ذلك أكن ظالماً لنفسي، وعاصياً عند الله، وعند الناس أجمعين».

ويصرخ (أزاد) في وجه قضاته: «إني مسلم... ولأني مسلم وجب عليَّ أن أندّد بالاستبداد، وأقبحه وأشهر بمساويه، إن الإسلام بمجرد ظهوره أعلن أن الحق ليس بالقوة ولا هو القوة بل الحق هو الحق، وأنه ليس لأحد من البشر أن يعبِّد عباد الله ويذلهم ويسخر منهم.

الناس كلهم متساوون في الإنسانية، متساوون في الحق متساوون في الحياة ، وليس اللون أو الجنس أو النسل معياراً للفضل والحسب، وإنما معياره العمل وحده، فأعلاهم قدراً أحسنهم عملاً، وأتقاهم لله، إن الإسلام أعلن حقوق الإنسان قبل انقلاب فرنسا بإحدى عشر قرناً... ولعمري إن مطالبة المسلم بأن يسكت عن الحق، وأن لا يسمي الظلم ظلماً، مثل مطالبته بأن يتنازل عن حياته الإنسانية.

فإن كنتم لا ترون لأنفسكم أن تطالبوا أحداً بأن يرتد عن دينه، فليس لكم أن تطالبوا مسلماً بأن يتمنع عن قوله للظالم أنه ظالم» ثم يقول: «الإسلام من أوله إلى آخره دعوة عامة إلى البسالة والجرأة والتضحية والاستهانة بالموت في سبيل الحق، وقد ابيضت عين الدهر ولم تر مثل هذه التضحيات الكثيرة في إعلاء كلمة الحق التي قدمتها الأمة الإسلامية في كل دور من حياتها. ألا: فلتعلم الحكومة الإنكليزية أن المسلم الذي أمره ربه أن يرحب بالموت الأحمر ويتغلل في أكماء الدواهي والكوارث، ولا يقبل السكوت عن الحق لا يخيفه قانون العقوبات الاستعماري ولا يرده عن دينه وأداء فريضته، إني أقول حقاً أنه لا يؤلمني أن أرى الحكومة عازمة على معاقبتي، وإنها لا تحاكمني إلّا لكي تزجني في السجون إذ هذا أمر لا بد منه، وإنما الذي يؤلمني ويفتت كبدي هو أن أرى الحالة تنقلب انقلاباً تاماً فبدلاً من أن ينتظر من المسلم صدق اللهجة والقول الحق يطلب منه السكوت عنه وكتمان الشهادة وألّا يقول للظالم أنك ظالم؛ لأن قانون المستعمرات يعاقب عليه».

وفي ختام هذا المشهد الرائع يلتفت أزاد إلى أولئك الذين غرر بهم المستعمر من أبناء الهند ليقيموا الدليل على إدانته، فيقيم لهم العذر ويطلب لهم المغفرة ويوجه إليهم الخطاب قائلاً: «أصحابي ثقوا بأني لا أغضب منكم ولا أحقد عليكم، بل لا أتهمكم بالكذب والزور عليّ؛ لأن كل ما قلتموه في الشهادة حق وصدق، ولكني أراكم قد عصيتم الله بمساعدة الحكومة الإنجليزية في استبدادها وظلمها ومحاربتها للإسلام والإنسانية... إني أعلم أن موت الضمير يوبخكم في أعماق سرائركم على ما تعملونه، ولكنكم إنما اضطررتم إليه اضطراراً لأنكم لا تملكون ما تسدون به عوزكم وترزقون به أهلكم، وليس فيكم قوة لتحمل البأساء والضراء في سبيل الحق، فلا أحنق عليكم بل أعفو عنكم وأستغفر الله لكم».

إن «أزاد» يعرف الضعف الإنساني التي يتسلط على بعض الناس، إنه لا يطلب من الحياة أن ترفع بالناس جميعاً إلى هذا المستوى الكريم الذي ارتفع إليه في التضحية والفداء والاحتمال فهو يعذر ويغفر.

وقبل أن يسدل الستار على هذه المأساة التي يمثلها الاستعمار على مسرح القضاء ويلبسها ثوب العدل والحق سيوجه «أزاد» حديثه إلى القاضي فيقول: «أنت أيها القاضي ماذا عسى أن أقول لك؟ لن أقول إلّا ما قاله المؤمنون قبلي في مثل موقفي هذا ﴿فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ﴾[1].

(1) سورة طه، الآية: 72.

أيها القاضي لقد طال الحديث، وآن الأوان للوداع فليودع كل منا صاحبه، إن ما يدور الآن بيننا سيسجله التاريخ في سجله ليعتبر به المعتبرون. لقد اشتركنا في ترتيبه على سواء، أنا من القفص للجناة، وأنت من ذاك الكرسي للقضاء، فهلمّ بنا نفرغ من هذا العمل لنسرع في المجيء إليك، ولتسرع أنت في القضاء علينا، فإن هذا العمل لا يطول قليلاً حتى يفتح باب محكمة أخرى: محكمة قانون الله الحق. إن الزمان سوف يكون قضاؤه حقاً وحكمه نافذاً»، ذلك هو «أزاد» المسلم الغيور على دينه الذي تمكّن الإسلام من قلبه فخاض لجج الأهوال، وتقحم سبل المهالك، دون أن تتغير خطاه أو ينحرف عن غايته. لأن الإسلام دين الوحدانية المطلقة التي رفعت بصر الإنسان خالصاً لله لا ليلتفت إلى سواه، فمن آمن بهذا الدين فليرفع رأسه وليقل كلمة الحق؛ لأنها كلمة الله.

وقد وقف أزاد الموقف الذي يدعوه إليه دينه ويهتف به وجدانه[1].

❑❑

أعجوبة الزمان في قفص الاتهام يصدع بالحق

ومن الهند ننتقل إلى بلد آخر من بلاد الإسلام الذي كان إلى عهد قريب مكان الخلافة الإسلامية وآخر القلاع الإسلامية

(1) مع الله، دراسات في الدعوة والدعاة، محمد الغزالي، ص: 446. عندما أنهيت كتابة هذا المشهد السامق من مشاهد تاريخنا، انقطع التيار الكهربائي، معلناً بانتهاء المشهد ورفعت الجلسة.

قبل أن يدمرها الماسونيون ويعبثوا بها، ذلك البلد الذي كانت ترفرف في سمائه الراية الإسلامية وكان يحتضن الإسلام والمسلمين إلى أن تدخلت عناصر ماسونية فيه ودب فيه الفساد، وآل إلى ما آل إليه قبله شأن الخلافة العباسية والأندلسية. إن تركيا الحديثة ما هي إلّا ربيبة الفكر الاستشراقي والماسوني، ولهذا نجدها في عدائها الفاضح للإسلام والمسلمين ورفضها لعقيدة ومنهاج الإسلام، ولقد عانى المسلمون من بطش هذا النظام الفاسد وخاصة الدعاة، ونحن نذكر هنا على سبيل المثال لا الحصر معاناة أحد دعاتها الأبطال ونقصد به العلامة سعيد النورسي رحمه الله تعالى.

يعتبر العلامة سعيد النورسي والملقب بـ (بديع الزمان) مفكراً إصلاحياً ومجاهداً عظيماً من طراز الرعيل الأول، وكان له دور بارز في فضح جماعة الاتحاديين وفي تعريف الجماهير المسلمة بحقيقة نواياهم الخبيثة، ولم يجد الاتحاديون من سبيل أمامهم أخيراً سوى القبض عليه وإيداعه في السجن الانفرادي في عام1909، وقُدّم إلى المجلس العسكري الذي حوكم فيه (15) مسلماً بالإعدام وبعد أن حكم الخمسة عشر رجلاً بالإعدام توجه الرئيس خورشيد باشا إلى بديع الزمان قائلاً: تكلم يا سعيد بما لديك، فقام وألقى على مسمع المحكمة كلاماً رائعاً، كان من الجدير أن ننقل إلى القارئ بعضاً من فقراته، ومن جملة ما قاله: «لو أن لي ألف روح لما ترددت أن أجعلها فداء لحقيقة واحدة من حقائق الإسلام... لقد قلت في حادثة أنني طالب، ولذا فأنا أزن كل شيء بميزان

الإسلام، إنني أقول لكم وأنا أقف أمام البرزخ الذي تسمونه السجن في انتظار القطار الذي يمضي بي إلى الآخرة، لقد حان للسرائر أن تنكشف وتبدو جلية من القلب، فمن كان غير مَحْرم فلا ينظر إليها إني متهيئ بشوق عظيم للقدوم إلى الآخرة، وأنا حاضر للذهاب مع هؤلاء الذين علقت مشانقهم، وتصور ذلك البدوي الذي شاقه الحديث عن إستنبول للقدوم إليها، إنني مثله تماماً في شوقي إلى الآخرة، وللقدوم إليها. إن نفيكم إياي إلى هناك لا يعتبر عقوبة... إن كنتم تستطيعون فعاقبوني المعاقبة الوجدانية». هكذا يجب أن يكون موقف العلماء أمام غوائل الطغاة، فليتأمل ذلك علماؤنا ليسيروا على نهجهم ولا يحيدوا عما ساروا عليه قيد أنملة حتى لا يزيغوا عن الحق المبين.

□□

معركة الحياة

الجهاد سنة الحياة، فليس في وسع الإنسان أن يرفض الجهاد إلّا إذا كان قد رفض الحياة نفسها، فيصبح في عداد الأموات.

ولعل أكثر الناس لا يعلمون أن جسد الواحد منهم. ميدان معركة دائمة مستمرة لا تنتهي إلّا بانتهاء حياته: فالجسم الحي في إنسان البالغ مجتمع يتكون من أكثر من مليون بليون خلية، وكل واحدة منها تقوم بعملها، من أجل صالح المجموع تحت حراسة مشددة تنظمها وزارة الدفاع في الجسم الحي، فإذا تعرضت خلية واحدة للغزو أعلنت حالة الطوارئ وتدفقت

الجيوش بكل حساب.

ولعل أكثر الناس لا يعلمون أيضاً «أن الكائن الحي بمثابة حصن منيع يقوم ويتصارع ويصد العدوان من خلال استحكامات رائعة في جسمه، فإذا انهارت تهدم الحصن أمام ضربات معاول الجراثيم»[1].

وما يجري في الجسد الواحد وهو صورة لما يجري في العالم الكبير.

فالحياة هي صراع مستمر بين الأحياء. ولولا هذا الصراع لما تقدمت الحياة ولما ارتقى الأحياء، ولقد فصل القرآن الكريم على ذلك القانون العالم إذ قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ﴾[2]، فمن هذا الدافع يبقى الصالح النافع. ويختفي الضعيف ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾[3].

❑❑

سر فساد الأمم

وإذا أردت أن تعرف سر فساد الأمم، وهلاك سلطانها، فإن جزءاً من الآية القرآنية تبرزه لك في أربع كلمات ﴿وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ﴾ فالمجتمع الذي تشاد فيه القصور، وتهمل

(1) من وصف العالم، عبد المحسن صالح.

(2) سورة البقرة، الآية: 251.

(3) سورة الرعد، الآيتان: 16، 17.

الإسلام والمسلمون، فتحي رضوان، ص: 70، دار الشروق، القاهرة ـ بيروت، 1982م.

فيه المرافق التي لا غنى عنها للناس هو المجتمع الذي يصح فيه قول الله تبارك وتعالى: ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ﴾[1].

□□

اعرف عدوك

إذا كان من الحكم التي أوصى بها الرسل والحكماء هذه الحكمة التي صيغت في كلمتين (اعرف نفسك)، فإن من الحكم أيضاً وفي وزن الحكمة السابقة ومفعولها تلك الحكمة التي يحمل بها الرسل والحكماء وتعلمناها نحن من تجارب الحياة، تلك الحكمة الأخرى التي صيغت أيضاً في كلمتين (اعرف عدوك)، ذلك لأن معرفتنا بأنفسنا وبقدرها يحمينا من الغرور ويدعونا إلى الاستكمال والتصحيح، ومعرفتنا بخصومنا وأعدائنا توقفنا على قدر وزنهم وضعفهم أو قوتهم وطرق تصرفاتهم، فنضعهم في حجمهم المناسب، نعاملهم على أساس معرفتنا بهم، ومع أن هذا أشبه ما يكون بالأمر البدهي إلّا أننا كثيراً ما نغفل عنه ونهمله، وإذا كان العلم بالواجب هو أول مراحل التكليف والعمل به، فإن أول مراتب درء الأخطار هو الشعور بها وإدراك مداها من أي جهة تأتي[2].

□□

(1) سورة الحج، الآية: 45.

(2) الثقافة الإسلامية، عبد المنعم التمر، دار المعارف ـ مصر، 1987م. أضيف: بل إن معرفة الخصم معرفة متعمقة، تزيد من فعالية الهجوم عليه، وتساعد المرء على معرفة أسلحة الخصم وحججه جميعاً.

أسس الثبات في الميدان

الحرب في حقيقتها صراع بين الإرادات، والنصر فيها يكون للجيش الذي يتفوق على عدوه في الإرادة، وروح القتال لا في العدد والعتاد، ولعل أقصى امتحان لهذه الإرادات: هو المواقف الحرجة والدقيقة في المعركة، حيث يكون العامل الحاسم هو القدرة على الثبات والصمود والمحافظة على إرادة القتال.

ولقد وضعت المدرسة العسكرية الإسلامية للثبات منهجاً عظيماً يجعل الجيش الذي يسير عليه جيشاً قوياً ثابتاً وفيما يلي أهم الأسس التي يقوم عليها هذا المنهج:

1 ـ الحث على الثبات مع رابطة الإيمان.
2 ـ الحث على الصبر.
3 ـ المناورة بالقوات (عملية عسكرية يقوم بها الجيش للتدريب).
4 ـ التعاون والتلاحم بين المقاتلين.
5 ـ الاستعداد المعنوي والنفسي .
6 ـ المعاناة: مشتركة بين الجانبين.
7 ـ التحكم في درجة التذبذب العاطفي.
8 ـ عقد الإيمان بين الله والمجاهدين .

❑❑

تعريف الشجاعة والحكمة

يُروى أن أحد الحكماء قصد الشاعر المغوار عنترة

العبسي، فقال له: هل أنت عنترة؟ أشجع أهل زمانك؟ فهل بإمكانك أن تعلمني الرجولة والشجاعة؟

فقال عنترة: ضع إصبعك في فمي، وسأضع إصبعي في فمك، وليعضّ كل واحد منا إصبع الآخر، في وقت واحد. وهكذا. فصرخ الحكيم: أخ. فقال عنترة: لو لم تقل أخ لقلتها أنا... هذه هي الرجولة والشجاعة وهي أن تصبر قليلاً حتى ينفذ صبر عدوك، ثم قال للحكيم: فهل بإمكانك أن تعلمني الحكمة، فقال الحكيم: ضع إصبعك في فمي، فمد إصبعه حالاً ووضعها بدون تحفظ في فم الحكيم، الذي عضها بسرعة فصرخ عنترة: أخ، فقال الحكيم: لو فكرت قليلاً قبل أن تضع أصبك في فمي لأدركت أني ربما سأعضها وأسبب لك الألم، ولأحجمت عندئذٍ عن وضعها في فمي، هذه هي الحكمة: أن تنظر في عواقبِ الأمور قبل وقوعها[1].

□□

كيف نصنع من الخسارة ربحاً؟

قد يتعجب القارئ من هذا السؤال ومن هذه الخليقة لأول وهلة أو أولِ نظرة، لكننا نطمئنهُ ونقول له: ارجع بصرك كرة أخرى ينقلب إليك البصر ويزيل منك التعجب من أن ترجع الخسارة ربحاً وكسباً، وأن يرجع النصر خسارة.

إن باستطاعة الإنسان كفرد أو أمة أن يكسب المعركة التي

(1) مجلة التربية الإسلامية، العددان (11، 12) السنة(26) 1405 هـ 1985م، نقلاً عن جريدة الداعي الهندسية.